نظريــة المخـــارج

الدكتور / عبد العزيز الصيغ
قسم اللغة العربية
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة السلطان قابوس (سلطنة عمان)

ملخص:

موضوع المقال حديث في النظرية الصوتية العربية التي بدت قاعدة أساسية وبنية متسقة في الدراسات اللغوية, مما يقوم دليلا على الوضوح والقدرة على الإبداع.
إن غياب الوسائل العلمية عند العرب هو السبب الذي أجل إثبات النتائج إلى العصر الحديث مع البحث اللساني الغربي مما أعطى التأكيد المعرفي لما تم التوصل إليه.

Résumé :

Dans cet article on parle de la théorie phonétique arabe qui se présente comme base essentielle et structure cohérente dans les études linguistiques ce qui est preuve de clarté et capacité d'innovation.
Le manque des instruments scientifiques était le problème suprême des chercheurs arabes contrairement à ce qui se passe aujourd'hui en occident en donnant la certitude cognitive déjà acquise par les arabes.

مقدمة :

نظرية المخارج نظرية ذات أهمية كبيرة في الدراسة الصوتية ، وهي أساس من أسس الدراسة الصوتية عند العرب ، وبنية محكمة في بناء متماسك تشكل تشكلا دل على وضوح تام في الرؤية وقدرة على الخلق والإبداع ، ولئن قصّر الذين أتوا بعد الرعيل الأول من العلماء في الاستفادة من هذا البناء الصوتي فإن ذلك يعود إلى أن الدرس الصوتي كان بحاجة إلى عصر الدقة التي توفرها الآلات والأجهزة الحديثة ، وهو ما حدث في العصر الحديث الذي شهد فيه الغربيون للعرب على سبقهم في هذا المجال الحيوي الذي كان له حضور وتأسيس في عصر يصعب على الباحثين الخوض فيه بالدقة العلمية نفسها التي خاض بها العرب فيه .

وإذا كان لكل فكرة من دواع وأسباب لولادتها ، ولكل علم ممهدات ومسوغات لنشأته ، فإن نظرية مخارج الأصوات ، والدرس الصوتي بشكل عام كان وراءه القرآن والقراءات القرآنية ، فقد حرص العرب والمسلمون على تلاوة القرآن التلاوة الصحيحة ، وتلقوه متلوا جيلا عن جيل ، وفردا عن فرد ، وكان لاختلاط الألسن واختلافها ما جعل الحذر شديدا في تحري الدقة في نطق الحروف ، ووصفها بتحديد موضعها وصفاتها ، وهو ما أدى بالعلماء أن يدققوا في ذلك ، وأن يبحثوا في الوصول إلى معرفة تامة في أمر الحروف (الأصوات) وكيفية نطقها وتحديد هويتها ، وهو ما أدى إلى ولادة نظرية المخارج التي تشكلت في كتاب سيبويه ، وهو كتاب وعى علم العربية الذي كان سائدا في ذلك العصر ، واستطاع هذا العبقري أن يشكلها في كتابه الذي وسم بالكتاب وهو أول وأشمل كتاب في العربية

دراسة المخارج بين الأصالة والاتباع :

لقد دلت دراسة المخارج على ما وصل إليه النظر المنهجي الصوتي السليم من وضوح لدى سيبويه ، وقد عدت عملاً كبيراً يشير إلى رسوخ القدم في مجال المعرفة الصوتية، وقد قال عنها أحد المستشرقين ((ونظرية مخارج الحروف عند النحاة العرب نظرية أحكموا ضبطها بعناية)) [1].

وإذا كان الفكر العربي قد حقق سبقاً في علم الأصوات بهذه الدراسة التي جاءت عند سيبويه ، فقد كان ذلك السبق مدعاة للتساؤل المنصف عند بعضهم [2] عن وجود هذا البناء النظري المتكامل، وترجيح القول بأنه عمل من أعمال الابتكار، والشك عند بعضهم [3] الآخر الذي دفع إلى ترجيح الأخذ عن الهنود، إلا أن أكثر الغربيين على الرأي الأول [4] .

يقول الدكتور عبد الرحمن أيوب: ((إن معرفة مخارج الحروف وصفاتها دراسة متخصصة، وقد كان لابدَ لها من أن تنتظر كتاب سيبويه ، وبهذا فإنه لا يمكن القول بأن سابقي سيبويه قد مهدوها له..، ولم يكن لدى الإغريق اهتمام بدراسة الأصوات، ومن هنا فإن المصدر الوحيد لسيبويه لا يمكن أن يكون غير الهنود)) [5] .

وحصر المسألة في هذا الجانب فيه شيء من التعسف وكأن العرب في أفكارهم كلها كانوا آخذين عن من سبقهم لا مبتكرين، ولاَشكَ أن مسألة أخذ سيبويه عن الهنود أو غير الهنود مسألة تظل رجماً بالغيب وضرباً من التوقع والحدس إلى أن تصح ، ومن الطبيعي أن يكون هناك تلاقح ثقافي بين الأمم.

ولاشَكَ أن الحضارة العربية الإسلامية ليست بنت الفراغ، وإنما هي ميـــراث أقوام سبقوا، ولكن تبقى مسألة أخذ الآخر عن الأول مرهونة بأدلـــة قاطعـــة غير قائمة على افتراضات وتصورات.

ولذلك فالراجح القول بأن نظرية المخارج والدرس الصوتي بصفة عامة عند العرب هي وليدة الثقافة العربية الإسلامية والنظر والتأمل الذي كان شائعاً في ذلك العصر.

والفكرة التي استند إليها أيوب في القول أن مصدر النظرية والدرس الصوتي عند سيبويه هو الهنود تقوم من خلال نصه ذاك على أسس غير متينة منها:

أولاً: أنه ينفي أن يكون من سبق سيبويه من اللغويين العرب لهـــم معرفـــة بالدراسة الصوتية.

ثانياً: إن الإغريق ليس لديهم اهتمام بدراسة الأصوات.

وهذا يفيد بالضرورة أن ما جاء في كتاب سيبويه أتى من هذين الطريقين، ومن طريق ثالثة هي الهنود، وهي مسألة لم يحسم الأمر فيها، أعني طريق الإغريق وطريق الهنود.

وحصر الأمر أن يكون عن طريق الهنود بعد نفيه أن يكون عن طريق العرب أو الأغريق لا يستقيم مع الحقائق المعروفة تاريخياً.

فالمعروف أن الخليل بن أحمد الفراهيدي أستاذ سيبويه علـــى نظـــر وافـــر بالموسيقى، وهو واضع علم لم يكن لمن قبله شي يذكر فيـــه، وهـــو علـــم العروض، وهذا العلم يعتمد أساسا على الجانب الصوتي للغة، فـــإن مادتـــه

الأساسية هي المقاطع، وقد كان الخليل ((مرهف الإذن، دقيق الحس بالأصوات، ولا ندهش من أجل ذلك أن يورث سيبويه فيما ورث وصفاً دقيقاً لأصوات اللغة ومخارجها وصفاتها)) [6] ، كما يقول الدكتور إبراهيم أنيس، فكيف يمكن القول إن من سبق سيبويه لا يمكن أن يكونوا قد مهدوا له هذه الدراسة؟

وغير ذلك أن سيبويه في مواضع متعددة من الكتاب كان ينقل عن أستاذه الخليل كثيراً من الحقائق الصوتية المتصلة بوصف الأصوات، أو بتحديد مخارجها، أو بتأثير بعضها في بعض مما يجعل مسألة أخذه عن الخليل واقعاً لا يفتقر إلى الأدلة، بل يصعب دفعه، ويستحيل إنكاره.

أما المسألة الثانية وهي أن الإغريق لم يكن لهم اهتمام بمعرفة الأصوات فإن إثبات معرفة العرب تسقط هذا الطريق أساسا، سواء أكان لهم أم لم يكن لهم، وإنما إحقاقا للحق، فان الإغريق كانوا على معرفة بالدراسة الصوتية [7]، إلا أنهم لم يبلغوا منها مبلغاً كبيراً.

وهذا الزعم الذي جاء به الدكتور أيوب ، هو مذهب بعض المستشرقين أما المنصفون[8] منهم فيعرفون للعرب الحق، يقول شادة: ((وزعم بعض المستشرقين أن العرب اقتبسوا علم الأصوات من الهند، ولكن مذهب العرب في دراسة الأصوات يخالف مذهب الهند في نقط مهمة فنرجح أن العرب استحدثوا هذا الفن من المدارك العربية بنفسهم (كذا) ولم يقتبسوه من أي شعب غيرهم)) [9]، ويقول الدكتور أحمد مختار عمر: ((إن الترتيب الصوتي عند الخليل وغيره من اللغويين العرب يختلف اختلافاً كبيراً عن ترتيب الهنود فقد ضمت الألفباء الهندية (51) حرفا وبدأت بالعلل..،

واشتملت على رموز للعلل القصيرة ولا تـــوجد في الألفباء العربية، وعلـــى رموز للعلل البسيطة والمركبة، ولا رموز للمركبة في العربية))[10].

وقد تردد الدكتور محمود السعران في المسألة، ولكنه لم ير ما يؤيـــد أخـــذ العرب عن الهنود قائلاً: ((إن أخذ العرب عن الهنود في الميادين الصـــوتية واللغوية عامة أو تأثرهم بهم أمر محتمل نظراً، ولكنا لا نملك من الأدلة مـــا يدعونا للقطع بأن أخذا أو تأثيراً قد حدث في هذا المجال أو ذاك)) [11].

ولا يعني تقدم الهنود زمنياً في دراسة الأصوات أخذ العرب عنهم فـــذلك لا يقوم وحده دليلاً.

مفهوم المخرج:

قسم سيبويه الأصوات على المخارج، فكانت عنده ستة عشر مخرجاً، هذه المخارج الستة عشر حوت تسعة وعشرين صوتاً، ثمانية وعشرون منها أصوات صامتة وواحد صائت هو الألف.والمخرج قد يكون واسعاً شاملاً لثلاثة أصوات، وقد يكون شاملاً لصوتين اثنين وقد يكون مخصوصاً بصوت واحد فقط.والملاحظ أن المخارج التي تضم ثلاثة أصوات ستة مخارج والتي تضم صوتين مخرجان، والتي تضم صوتاً واحداً ثمانية مخارج.

وهذا يعني أن المخرج لديه هو منطقة ولادة الصوت وإلا لما كان هناك ثمانيـــة أصوات لكل واحد منها مخرج، بينما اشترك أحياناً صوتان في مخـــرج، وثلاثـــة أصوات في مخرج واحد.

وعليه فإن اتساع المخرج ليشمل صوتين أو ثلاثة، يعني أن هناك اختلافات أخرى تفرق بينها، وهي الصفات فالأصوات المتفقة المخارج مختلفة الصفات.

وربما لا يكون للصوت مخرج فتحدده الصفة، مثلما هو الحال في أصوات المد.والملاحظ أن جميع الأصوات كما هي مذكورة عند سيبويه يتحدد مخرجها بالتقاء عضوين، يكون اللسان أحدهما عدا أصوات الحلق والشفتين فالحلقية مخرجها لا علاج للسان فيها، وكذلك الأصوات الشفوية وقد ذكر سيبويه أن أصوات المد أيضاً لا علاج لها من اللسان مخالفاً المحدثين.

بين المخرج والموضع:

استعمل سيبويه مصطلحاً مرادفاً للمخرج، وهو الموضع ، إلا أنه فرق بين المصطلحين، فقد خص المخرج بموضع ولادة الحرف، وأما كلمة الموضع، فقد جاءت أحياناً لتدل على معنى المخرج، وأحياناً على معنى التقاء اللسان بعضو آخر، ولذلك فهو حين يقول أن أصوات الإطباق لها موضعان، فهو لا يقصد مخرجين، وإنما يريد القول أن اللسان يتصل في موضعين أحد هذين الموضعين هو المخرج.

وقد رأى شادة أن مصطلح المخرج الذي استعمله سيبويه غير صحيح حيث يقول: ((أما سيبويه نفسه فعبارته مخارج الحروف أو منافذها، ولا تصح هذه العبارة إلا على الاختصار، فإن ما يخرج من المخارج ليس هو الحرف نفسه، بل تيار النفس الذي هو العامل الأول في إنتاجه))[12]، وقد أيد ذلك الدكتور إبراهيم أنيس، إلا أنه لم يوافق على تغيير المصطلح، ورأى أن تغيير

شادة ((لمعنى المصطلح الذي استعمله سيبويه لمكان التقاء العضوين وسماه بالمخرج لا مبرر له، فقد اشتهر بين الدارسين بهذا المعنى)) [13].

ولا أدري كيف يؤيد الدكتور أنيس عدم صحة استعمال المخرج، فهذا المصطلح على الرغم من أنه مصطلح إلا أن دلالته اللغوية واضحة على المعنى المراد، وليس القول أن ما يخرج هو النفس وليس الحرف بصحيح، فإن النفس يخرج سواء أكان هناك صوت أم لم يكن، وليس هناك موضع محدد لمخرج النفس، والذي يتجه لي أن مصطلح المخرج مصطلح يكتسب دقته ليس من أنه صار شائعاً في الاستعمال، وإنما لما تدل عليه الكلمة في أصل وضعها.

وقد رأى شادة أيضاً أن سيبويه استعمل مصطلحاً ثالثاً هو (المعتمد) ليدل على المعنى ذاته الذي دل عليه المصطلحان المخرج والموضع وذلك حيث يقول: ((وما عدا المخرج والمنفذ يوجد عند سيبويه اصطلاحات يرادفانهما في بعض الأحوال وهما الموضع والمعتمد .. وهذا الموضع أو المعتمد هو موضع العارض)) ويقصد مكان التقاء عضوي النطق، ولم يأتِ شاده بما يدل عل قوله هذا في أن معنى المعتمد هو الموضع.

والعبارة التي وردت عند سيبويه هي قوله في تعريف المجهور ((حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت)) [14]، ولا شك في أنه أخذ معنى المعتمد من كلمة الاعتماد، والاعتماد عنده هو هيئة معينة وصف بها الجهر، ولم يستعمل لفظ (المعتمد) ويبدو أن شاده رأى أن المعتمد هو مكان الاعتماد أي المخرج ، وليس حقاً أن نقترح مصطلحاً ننسبه إليه لم يستعمله.

وحديث المخارج كله يوضح أن المخرج له معنى موضع خروج الحرف وأن الموضع هو مكان التقاء عضوي النطق، والنص السابق المذكور يبين ذلك وهو ما أكده بعضهم بقوله: ((يفرق سيبويه بين الموضع وهو المكان الذي يوضع اللسان للنطق، .. والمخرج وهو مكان الخروج)) [15]، أما معنى الاعتماد فيتصل بمعنى الجهر الذي سوف نعرض له عند الحديث عن الصفات في الفصل القادم.

الحيز: من المصطلحات التي ذكرها سيبويه ، واستعملها بمعنى المخرج، إلا أنه لم يلتزم بالمعنى نفسه، فهو يطلقه أحيانا ليدل على المخرج، وأحياناً يدل به على أكثر المخرج.

وقد استعمل الحيز في قوله: ((والحروف المرتفعة حيز على حدة [16]، وهو هنا يقصد منطقة الحلق كلها، وهي تشتمل على ثلاثة مخارج.

ويقول أيضاً: ((والظاء والذال والثاء.. من حيز واحد)) [17] وهذه الثلاثة من مخرج واحد معروف، ويقول أيضاً: ((الطاء والتاء والدال..من حيز واحد)) [18]، وهو هنا أيضاً بمعنى المخرج.

فالحيز عند سيبويه لا يأخذ معنى واحداً، فهو لا يرادف المخرج، وإن جاء بمعنى المخرج أحياناً، والواضح أن سيبويه استعمله استعمالاً لغويا يطلقه على منطقة واسعة كالحلق أحياناً، ويطلقه حينا آخر ليدل على المخرج.

ولا يتفق معناه مع ما استعمل في معجم العين فقد استعمل هناك ليدل على المخرج دلالة أكيدة، وهو ما يثير شيئاً من الاستغراب فلو كانت دلالة اللفظ محددة عند الخليل كما هي واضحة في العين لاستعملها سيبويه على المعنى

ذاته، وقد رأى بعض المحدثين أن الحيز في العين ((أوسع من المخرج، لأنه قد يحتوي على أكثر من صوت.. أما المخرج فهو يدل عنده على ما يسميه المحدثون بموضع النطق)) [19]، وليس هذا بصحيح، وهو استنتاج قائم على خطأ في النقل كما بدا لي فقد صحف (مدارج) في نص العين إلى (مخارج) حين نقل من العين فقال: ((في العربية تسعة وعشرون حرفاً.. لها أحياز ومخارج)) [20] في حين أن النص ((لها أحياز ومدارج)) [21]، والمدرج لفظ أوسع من الحيز، والذي يؤكد أن الحيز عنده هو المخرج قوله بعد العبارة نفسها: ((وأربعة أحرف جوف وهي الواو والياء والألف اللينة والهمزة وسميت جوفاً لأنها تخرج من الجوف فلا تقع في مدرجه من مدارج اللسان ولا من مدارج الحلق ولا من مدارج اللهاة، إنما هي هاوية في الهواء فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف)) [22]، وأوضح من هذا هو قوله: ((الخاء والغين في حيز واحد..، الجيم والشين والضاد في حيز واحد، ثم الصاد والسين والزاي في حيز واحد، ثم الطاء والدال والتاء في حيز واحد، ثم الظاء والذال والثاء في حيز واحد)) [23].

أما قوله أن الحيز يشمل أكثر من صوت مما يعني أنه أوسع من المخرج، فإن المخرج أيضا يشمل أكثر من صوت، والمعروف أن أصواتاً تتفق مخارجها ، وتفرق بينها الصفة، وهذا النص الذي ذكرناه يتفق مع سيبويه ، فهذه الأصوات متفقة المخارج عنده، وهي متفقة الأحياز في العين.

المخارج بين المحدثين وسيبويه:

يختلف المحدثون مع سيبويه في تقسيم المخارج، فهي عنده ستة عشر مخرجاً، وهي[24]:

1- أقصى الحلق مخرج الهمزة والهاء والألف.
2- أوسط الحلق مخرج العين والحاء.
3- أدنى الحلق مخرج الغين والخاء.
4- من أقصى اللسان، وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف.
5- من أسفل من موضع القاف من اللسان قليلاً، وما يليه من الحنك الأعلى مخرج الكاف.
6- من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء.
7- من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد.
8- من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان، ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى، وما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية مخرج اللام.
9- من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا مخرج النون.
10-من مخرج النون غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلاً لانحرافه إلى اللام مخرج الراء.
11- ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء.
12- ومما بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الزاي والسين والصاد.
13- ومما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء والذال والثاء.
14- ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العلى مخرج الفاء.
15- ومما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو.
16- ومن الخياشيم مخرج النون الخفية)).

وهي عند المحدثين أقل من ذلك، إلا أنها غير مستقرة العدد، فهي تسعة [25]، وهي عشرة [26]، وهي أحد عشر [27] وهي اثنا عشر مخرجاً [28].

هذا الاختلاف عند المحدثين يثير العجب، ويدعو إلى التساؤل، ومهما كان العدد، فإن ذلك يعني أن عدد المخارج غير محدد وغير متفق عليه.

والخلاف لا يقتصر على العدد فقط، وإنما يتجاوزه إلى التسميات، فإن الأسماء التي نجدها عند المحدثين تختلف إلى حد الاشتباه والالتباس أحيانا، وللمقارنة بين هذه المخارج والمخارج عند سيبويه ، فضلنا ما ذكره الدكتور تمام حسان بوصفه أكثر شيوعاً واستعمالا عند المحدثين في أبحاثهم، ولكونه أخضع الأصوات العربية لهذه المخارج.

وهي عنده عشرة مخارج على النحو الآتي [29]:

1- الشفوي	لأصوات الباء والميم والواو
2- شفوي أسناني	لصوت الفاء
3- أسناني	لأصوات الذال والثاء والظاء
4- أسناني لثوي	لأصوات الضاد والدال والتاء والطاء والزاي والسين والصاد
5- لثوي	لأصوات الراء واللام والنون
6- غاري	لصوتي الشين والجيم
7- طبقي	لأصوات الكاف والغين والخاء
8- لهوي	لصوت القاف
9-حلقي	لصوت العين والحاء
10-حنجري	لصوتي الهاء والهمزة

وهذه المخارج منسوبة إلى مواضع نطق الأصوات غالباً، وهي تجمع في أسمائها أسماء العضوين الذين يتصلان في حالة نطق الصوت، فالصوت الذي يخرج بالتقاء الشفتين يسمى شفوياً وبعضهم يسميه شفتانيا [30]، والصوت الذي يتم نطقه بالتقاء الأسنان والشفة يسمى شفوياً أسنانيا وهكذا.

ووفقاً لما تقدم نجد أن الخلاف بين سيبويه والمحدثين هو خلاف لا يتجاوز الخلاف بين المحدثين أنفسهم، إذا تأملنا المخارج عند المحدثين، بل إن سيبويه أقرب إلى بعضهم من آخرين، ولإيضاح ذلك قمنا بتحديد المخارج بحسب ما وردت عند سيبويه على منهج المحدثين فوجدناها اثنى عشر مخرجاً، ولعل الفرق الوحيد الذي يمكن الاعتداد به بينهم وبين سيبويه هو أنه جعل للفراغ الأنفي موقعا بين المخارج.

أما الخلافات الأخرى فهي شكيلة ، إذ أن ما يجمعه سيبويه أحياناً في مخرج واحد يفرقه المحدثون بين مخارج عدة، وما يجمعه المحدثون يفرقه سيبويه، وتبقى المسألة اختلافات بسيطة غير أساسية.

والملاحظ على جدول المخارج عند المحدثين ، أن المخارج اثنا عشر مخرجا كما ذكر الدكتور عبد الرحمن أيوب ، منها مخرجان لا يوجدان في العربية ، ولذلك فإن المخارج الموجودة في العربية من هذه المخارج المعتد بها دوليا عشرة مخارج على ما ذكر الدكتور أيوب.

وهي عند الدكتور أحمد مختار عمر نقلا عن كتاب علم الأصوات لمؤلفه ج.د اكنور،وهو مؤلف مشهور عشرة مخارج، منها مخرج واحد لا يوجد في العربية، ولذلك فإن بقية المخارج تكون تسعة مخارج ، وقد عاد في موضع آخر من كتابه وعد أحد عشر مخرجا.

وهي عند الدكتور محمود السعران أحد عشر مخرجا كلها موجودة في العربية ، وهؤلاء الثلاثة يطلقون على هذه المخارج المعروفة في لغات العالم، وقد أثبتنا ثلاث قوائم أخرى نقلا عن كتب مترجمة أحدها لكانتينو، من كتاب دروس في علم أصوات العربية، والآخر من كتاب مبادئ اللسانيات نقلا عن قاموس فرنسي والثالث من كتاب أساسيات علم الكلام لمؤلفين هما بوردن وهارس ، لكي تتضح الصورة، وهذه المصادر الثلاثة عدد المخارج فيها بالترتيب تسعة وأحد عشرة مخرجا وعشرة مخارج .

هذه القوائم تختلف اختلافا كثيراً، ولذلك فإننا نعجب لقول الدكتور تمام حسان إن النحاة العرب خلطوا((خلطا كبيراً في تحديد هذه المخارج)) [31]، وعلى الرغم من أن هذا تعميم لا يؤخذ به إلا أنه خصص به ابن الجزري فيما بعد.

وقد رأى من مظاهر هذا الخلط أن ابن الجزري((يقول أن صوتي الخاء والغين من أدنى الحلق إلى الفم وراء مخرج القاف مع أنهما من مؤخر اللسان مع الطبق أمام مخرج القاف)) [32]، ومن الطريف أن نجد من الباحثين المحدثين من يرى خلطا فيما يقول الدكتور تمام حيث يقول : ((وأما الغين والخاء فهما طبقيان إلا أن يكونا مفخمين فساعتئذ يكونان لهويين، وقل أن نجد من يفرق بين هذين النطقين الغين والخاء ، وقد أصابت إحدى الدراسات

الحديثة الصادرة من معهد الصوتيات ، في ستراسبورغ حين وصفت الغين والخاء العربيين بأنهما يكونان طبقيين كما يكونان لهويين)) [33].

والدكتور تمام حسان ذكر مخارج عشرة، قائلا إنها تختلف عن تلك التي توجد في علم التجويد ، وأصحاب علم التجويد أخذوا المخارج عن سيبويه، ولذلك فهو يعني أنها تختلف عن المخارج عند سيبويه، إلا أن الواضح أن الدكتور تمام أخضع المخارج الدولية للأصوات العربية، فوجدها عشرة كما ذكرناها وهي تنطبق مع ما ذكره الدكتور أحمد مختار عمر، إلا مخرجاً واحداً أضافه الدكتور تمام بدلا من مخرج لا يوجد في العربية ذكره الدكتور مختار عمر.

وبالنظر إلى الجدول نجد أن المخارج عند سيبويه هي عند تمام حسان، وعند أحمد مختار عمر عدا مخرج واحد هو عند أحمد مختار عمر لا يوجد في العربية .

وكذلك الحال بالنسبة للمخارج التي ذكرها الدكتور محمود السعران، فهي تتفق مع سيبويه عدا مخرجين أحدهما سماه (اللثه ومقدم الحنك الأعلى) جعله لصوت الشين، وهو ما سماه الدكتور تمام حسان (غاري) ، وما أطلق عليه سيبويه (وسط اللسان) ، والآخر ســماه (مقدم الحنك الأعلى ووسطه) ولم يمثل له بصوت، وربما أراد صوت (الجيم) ، لأنه لم يذكره بين الأصوات أو أراد (الجيم والياء).

وبالنظر إلى جدول الأصوات بين سيبويه وتمام حسان المرفق نجد أن الأصوات في ستة مخارج من مجموع عشرة مخارج موزعة كما هي بين الاثنين فالمخارج الشفوي، والشفوي الأسناني، والأسناني، واللثوي، والغاري،

والحلقي، والحنجري، أصواتها هي بين الاثنين ، أما المخرجـــــــــــان (الطبقي) و(اللهوي)، عند تمام حسان فإن أصواتهما تقابل (أقصى اللسان) و(أدنى حلقي) عند سيبويه ، وهي المنطقة التي مازال حتى المحدثون يخلطون بين وضع أصواتها بين التقديم والتأخير كما تقدم.

وأما المخرجان الباقيان وهما حسب الجدول الرابع والخامس عند تمام ، أما الخامس فيقابل من حيث الاسم الرابع عند سيبويه ، ولكن أصواتهما مختلفة ، فعند سيبويه مخصوص بالأصوات النطعيه ، وعند تمام مخصوص بصوتي اللام والراء ومنطقة هذين المخرجين تزدحم بالأصوات ، لذلك سماها الدكتور إبراهيم أنيس (المجموعة الكبرى) ، لذا رأينا الدكتور تمام يتطابق في عده المخـــــــــــــارج مع الدكتور أحمد مختار عمر ويختلف معه في إضافة مخرج ســـــماه (أسناني لثوي) ، جمع فيه ثمانية أصوات ، هذا المخرج هو الخامس عنده ، وهو يحمل جمعا لمخرجين عنده هما (الأسناني) و (اللثوي)، وهما موجودان عند سيبويه. وتخصيصه مخرجا يجمع بين المخرجين دليل من أدلة اشتباه هذه المنطقة والتباسها في المخارج، ولعل الاختلاف بين المحدثين أنفسهم سبب كافٍ للقول إن اختلافهم مع سيبويه يبقى من البديهيات التي لا تحتاج إلى تسويغ.

ويبقى المخرج الوحيد الذي لا يوجد عند المحدثين ، وهو المخرج الأنفي الذي جعله سيبويه لصوت من الأصوات الفرعية، ولعل تخصيصه إياه لصوت فرعي كافٍ لجعله بعيداً عن أوجه المقارنة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن المخرج الأنفي، وإن لم يوجد في ما ذكر من مخارج دوليه، فإن المحدثين يذكرونه، وينسبون أصوات إليه وهي ((التي يتم إنتاجها بخروج

الهواء من منطقة الأنف فقط)) [34]، ونسبة هذه الأصوات إلى الأنف دليل أنهم يجعلونه موضعا لهذه الأصوات، وهو من هذه الناحية يكافئ صنيع سيبويه وإن لم يقروا هم بالأنف أو الفراغ الأنفي مخرجا ، على أساس أن المخارج تقارب عضوين أو التصاقهما.

وأخيرا لعل الملاحظة الكبيرة التي تظهر من خلال هذه الجداول هو أن سيبويه عد الألف صوتا من أصوات الحلق ، جعله في موضع الهمزة والهاء، ، وهو أمر يستدعي الدهشة ويثير الحيرة، وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم من أن الدكتور إبراهيم أنيس قد اعتذر له بأنه يريد صوت الهمزة، وأنه ذكر رسميها (الهمزة والألف) فيما ذكر ، وأن الدكتور حسام النعيمي قد رد ذلك، وقد عللنا نحن لذلك بأنه ضرب من النظر المزدوج لطبيعة أصوات المد، فمرة يعدها حركات حين ينظر إلى حقيقتها الصوتية، ومرة ينظر إليها نظرة منطقية صرفة، حين يرى بأن أصوات الحلق قسم يتميز عن أصوات الفم هذه مرتفعة، وتلك في موقع أدنى فجعل الياء والواو في المرتفع، والألف في أصوات الحلق.

أصوات الحلق وأصوات الفم :

عندما وزع سيبويه الأصوات على المخارج ، قسمها على منطقتين هما الحلق والفم، وقد رأى أن هاتين المنطقتين كل منهما لها صفات خاصة، وأصواتهما تختلفان يقول: ((حروف اللسان لا تدعّم في حروف الحلق)) [35]، وهو يقصد بأصوات اللسان أصوات الفم ، وقد تكرر كثيرا عنده الحديث عن أصوات الحلق بوصفها مجموعة مستقلة، وأصوات الفم بوصفها مجموعة مستقلة، كقوله: ((أصل الإدغام لحروف الفم)) [36]، أو قوله: ((لم تكن حروف الحلق

أصلا للإدغام)) [37]، وهذا يعني أنه كان يرى أن كل منطقة من هاتين المنطقتين اتسمت بسمات خاصة، وعلى الرغم من أن أصوات الشفتين ربما تمثلان قسماً ثالثا إلا أنه لم يجعله قسما له سمات كما جعل هذين، وقد خص هذين القسمين بالسمات الآتية وهي :

أولا: لقد ميز سيبويه منطقة الحلق بأنها منطقة سفلى، مقابل منطقة الفم التي رأى أنها مرتفعة، ولذلك فقد رأى أن أصواتها سفلى و ((الهمزة أقصى الحروف وأشدها سفولا))[38].

ثانيا: تأسس على القول إنها سفلى أنها ليست أصلاً للإدغام، وقد رأى أن قلة أصوات هذه المنطقة هي السبب في أنها ليست للإدغام ، وذلك في قوله : ((حروف الحلق ليست بأصل للإدغام لقلتها)) [39].

ثالثا : لا تدغم أصوات الحلق في أصوات الفم ، ولا تدغم أصوات الفم في أصوات الحلق، وذلك حيث يقول : ((حروف اللسان لا تدغم في حروف الحلق)).

رابعا: تتميز أصوات الحلق بأنها تمثل حالة مستقلة مع النون الساكنة حيث تكون النون مظهرة مع هذه الأصوات .

خامسا: أصوات الحلق لها خاصية معينة وهي أنها عند ما تكون عينا أو لاماً للفعل الماضي فإن مضارعه يكون منصوباً وقد علل سيبويه ذلك بالقول إن الفتحة من حيز أصوات الحلق لأنها بعض الألف والألف من أصوات الحلق، وهو هنا يجعل أصوات المد مقسمة بين أصوات الحلق وأصوات الفم التي لها الواو والياء.

وهذه السمات أسس عليها مفاهيم بعضها صوتية، كما هو الأمر في باب الإدغام ، وبعضها منطقية كما هو الأمر في حديث الأصوات المرتفعة والحركات المرتفعة .

والخلاصة أن سيبويه عد ستة عشر مخرجا، ثلاثة منها لمنطقة الحلق الواسعة وثلاثة عشر لمنطقة الفم الأكثر اتساعا، وعد المحدثون أقل من ذلك ، واختلفوا بين تسعة مخارج ، واثنى عشر مخرجا، إلا أن المقارنة بين عمل سيبويه وعملهم أوضحت أن سيبويه كان أكثر تدقيقاً في تعيين المخارج، ولذلك امتدت عنده المخارج إلى ستة عشر مخرجا.

كما أن سيبويه لم يجعل للأصوات الفرعية موضعا في قائمة المخارج عدا صوت واحد هو النون الخفية ، وأن ذلك لأن صوت النون الخفية واضح مميز مخرجه عن مخرج النون الذي حدده من الفم.

وقد رأى سيبويه المخارج سلماً صاعداً نازلا ، ورأى أن الجزء النازل من هذا السلم هو الحلق، والجزء الصاعد هو الفم ، ولذلك أطلق على حروف الفم الحروف المرتفعة، وأقام على هذه الفكرة تصوره في موضوع الإدغام ، فأصوات الحلق لا تدغم في أصوات الفم والعكس صحيح.

كما أنه حين رأى الأصوات الصامتة موزعة بين الحلق والفم وزع أصوات المد أيضا، فرأى للألف الحلق، وللواو والياء الفم ، وهو في هذا قد مزج بين النظر الصوتي والنظر المنطقي، ولعله حين رأى أن الواو والياء غير المديتين من الفم، رأى أن المديتين أيضا من الفم، وأن الألف من الحلق ، وقد أسس على تلك النظرة القول بأن الفتحة ليست من الحيز الذي ارتفع، فهي من أصوات الحلق، وأن الضمة والكسرة مما ارتفع.

وأن دراسة المخارج فكرة عربية خالصة نبعت في أرض وتفكير عربيين، وهي نتاج المناخ العلمي الذي كان سائدا ذلك العصر، وهو عصر قدم الكثير على صعيد البحث اللغوي الأصيل.

وقد كان مفهوم المخرج واضحاً استعمله سيبويه استعمالا واحداً موحداً لم يلتبس بألفاظ أخرى ، وأما الكلمات الأخرى التي وردت مثل الموضع والحيز، فقد استعملت استعمالا لغويا، ولذلك اشتركت أحيانا معه في المعنى دون أن تشكل عائقا في دلالته وحده على ما أطلق عليه.

الهوامش والتعليقات

[1] دروس في علم أصوات العربية ص(31).
[2] موجز تاريخ علم اللغة ص(173).
[3] التفكير اللغوي عند العرب ص(209).
[4] ينظر: دروس في علم أصوات العربية ص(31).
موجز تاريخ علم اللغة ص(173).
علم الأصوات عند سيبويه وعندنا ص(4).
[5] التفكير اللغوي عند العرب ص (209).
[6] الأصوات اللغوية ص(105).
[7] ينظر: علم اللغة ص(92).
[8] ينظر:البحث اللغوي عند العرب ص(223).
كذلك: جهود العرب في الدراسات الصوتية ص(14).
كذلك: تأملات في بعض ظواهر الحذف الصرفي ص(19).
[9] علم الأصوات عند سيبويه وعندنا ص(4) والصواب بأنفسهم.
[10] البحث اللغوي عند العرب ص(223).
[11] البحث اللغوي عند العرب ص(223).
[12] علم الأصوات عند سيبويه وعندنا ص(7،8).
[13] الأصوات اللغوية ص(113).
[14] الكتاب 405/2.
[15] التفكير الصوتي عند العرب-هامش ص(61).
[16] الكتاب 252/2.
[17] نفسه 419/2.
[18] نفسه 419/2.
[19] التفكير الصوتي عند الخليل ص(23).
[20] نفسه ص(23).
[21] العين 57/1.
[22] نفسه 57/1.

[23] نفسه 58/1.
[24] الكتاب 405/2.
[25] دروس في علم أصوات العربية ص(23،22).
[26] مناهج البحث في اللغة ص(84، 85)، أيضاً: دراسة الصوت اللغوي ص(97).
[27] دراسة الصوت اللغوي ص(269-273). أيضاً: علم اللغة ص(199-200).
[28] أصوات اللغة ص(199-217).
[29] مناهج البحث في اللغة ص(84-85).
[30] ينظر: علم اللغة ص(199) والمصطلح الألسني العربي ص(13).
[31] مناهج البحث في اللغة ص (85).
[32] نفســه ص (86).
[33] نحو معجم لساني شامل ص (160).
[34] نحو معجم لساني شامل موحد ص (162).
[35] الكتاب 2/ 415.
[36] نفسه 415/2.
[37] نفسه 413/2.
[38] نفسه 453/2.
[39] نفسه 412/2.

المصادر والمراجع

1. **الكتاب** أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر القاهرة ، المطبعة الأميرية ببولاق 1316هـ
2. **العين** الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ) ، تحقيق : الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور مهدي المخزومي. دار الرشيد للنشر، بغداد 1400هـ-1980م .
3. **دروس في علم أصوات العربية** جان كانتينو، نقله إلى العربيه، صالح القرمادي، نشريات مركز الدراسات والبحوث الاقتصاديه والاجتماعيه، طبع اوفست الشركه التونسيه لفنون الرسم 1966م.
4. **موجز تاريخ علم اللغة** ر . هـ . روبنز، ترجمة الدكتور أحمد عوض ، مطابع الرسالة- الكويت ، عالم المعرفه 1418 هـ 1997م.
5. **التفكير اللغوي عند العرب قبل سيبويه،** فتحي محمد جمعه ، إشراف: الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين ، جامعة القاهرة – كلية دار العلوم 1404هـ 1983م - دكتوراه .
6. **الأصوات اللغوية** ، الدكتور إبراهيم أنيس ، الطبعة الرابعة – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة 1971م.
7. **علم اللغه** ، الدكتور محمود السعران ، دار المعارف – مصر 1962م.
8. **البحث اللغوي عند العرب،** الدكتور أحمد مختار عمر الطبعة الثانية – عالم الكتب – القاهرة 1396هـ – 1976م.
9. **جهود العرب في الدراسات الصوتيه** ، الدكتور كمال بشر - مجلة قافلة الزيت المجلد (24) العدد(5)الرياض 1396هـ 1976م.
10. **تأملات في بعض ظواهر الحذف الصرفي** ، الدكتور فوزي الشايب، حوليات كلية الآداب – جامعة الكويت الحولية العاشرة 1409هـ – 1989م.

11. **علم الأصوات عند سيبويه وعندنا** ، أ. شاده ، محاضرة ألقاها في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية ونشرت في صحيفة الجامعة المصرية ، السنة (2) 1931م، العدد (5) ص 3-19 ، والعدد (6) 13-26 .
12. **التفكير الصوتي عند العرب** ، الدكتور الأب هنري فليش تعريب وتحقيق الدكتور عبد الصبور شاهين مجلة مجمع اللغة العربية – الجزء (23)، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية – القاهرة 1388هـ 1968م.
13. **التفكير الصوتي عند الخليل**، الدكتور حلمي خليل، الطبعة الأولى – دار المعرفة الجامعية– الاسكندرية، 1988م.
14. **مناهج البحث في اللغة** ، الدكتور تمام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1955م.
15. **دراسة الصوت اللغوي** ، الدكتور أحمد مختار عمر ، الطبعة الأولى ، عالم الكتب 1396هـ 1976م.
16. **أصوات اللغة** ، الدكتور عبد الرحمن أيوب ، الطبعة الثانية – مطبعة الكيلاني – القاهرة 1968م.
17. **المصطلح لألسني** العربي وضبط المنهجية، الدكتور: أحمد مختار عمر، مجلة عالم الفكر، مجلد (20) عدد (3)الكويت 1989م
18. **نحو معجم لساني شامل موحد**، سمير ستيتيه ، مجلة أبحاث اليرموك المجلد (10) العدد(2) الأردن 1992م.